

تفسير ابن كثير

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ
أَفَلَا يُبْصِرُونَ

وقوله : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) : يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السبح ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته; ولهذا قال : (إلى الأرض الجرز) ، وهي [الأرض] التي لا نبات فيها ، كما قال تعالى : (وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) [الكهف : 8] ، أي : يبسا لا تثبت شيئا وليس المراد من قوله : (إلى الأرض الجرز) أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود ، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست [هي] المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعا من هذه الآية ، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرا لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله إليها النيل بما يتحملة من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر ، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضا لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل

سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان
الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء . قال ابن لهيعة ، عن قيس بن حجاج ، عن
حدثه قال : لما فتحت مصر ، أتى أهلها عمرو بن العاص - [وكان أميراً بها] - حين
دخل بثونة من أشهر العجم ، فقالوا : أيها الأمير ، إن ليلنا سنة لا يجري إلا بها . قال :
وما ذاك ؟ قالوا : إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكرين
أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في
هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون في الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما كان
قبله . فأقاموا بثونة والنيل لا يجري ، حتى هموا بالجلاء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب
بذلك ، فكتب إليه : إنك قد أصبت بالذي فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي
هذا ، فألقها في النيل . فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله
عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد . . . فإنك إن كنت إنما تجري من قبلك
فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك . قال :
فألقي البطاقة في النيل ، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في

ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم
اللالكائي الطبري في كتاب " السنة " له . ولهذا قال تعالى : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى
الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) ، كما قال
تعالى : (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها
حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا [متاعا لكم ولأنعامكم]) [
عبس : 24 - 32] ؛ ولهذا قال هاهنا : (أفلا يبصرون) . وقال ابن أبي نجيح ، عن رجل
، عن ابن عباس في قوله : (إلى الأرض الجرز) قال : هي التي لا تمطر إلا مطرا لا يغني
عنها شيئا ، إلا ما يأتيها من السيول . وعن ابن عباس ، ومجاهد : هي أرض باليمن . وقال
الحسن ، رحمه الله : هي قرى فيما بين اليمن والشام . وقال عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ،
والسدي ، وابن زيد : الأرض الجرز : التي لا نبات فيها وهي مغبرة . قلت : وهذا كقوله : ()
وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من
نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) [
يس : 33 - 35] .